لودفيج فيتجنشتاين
محاضرة عن علم الأخلاق

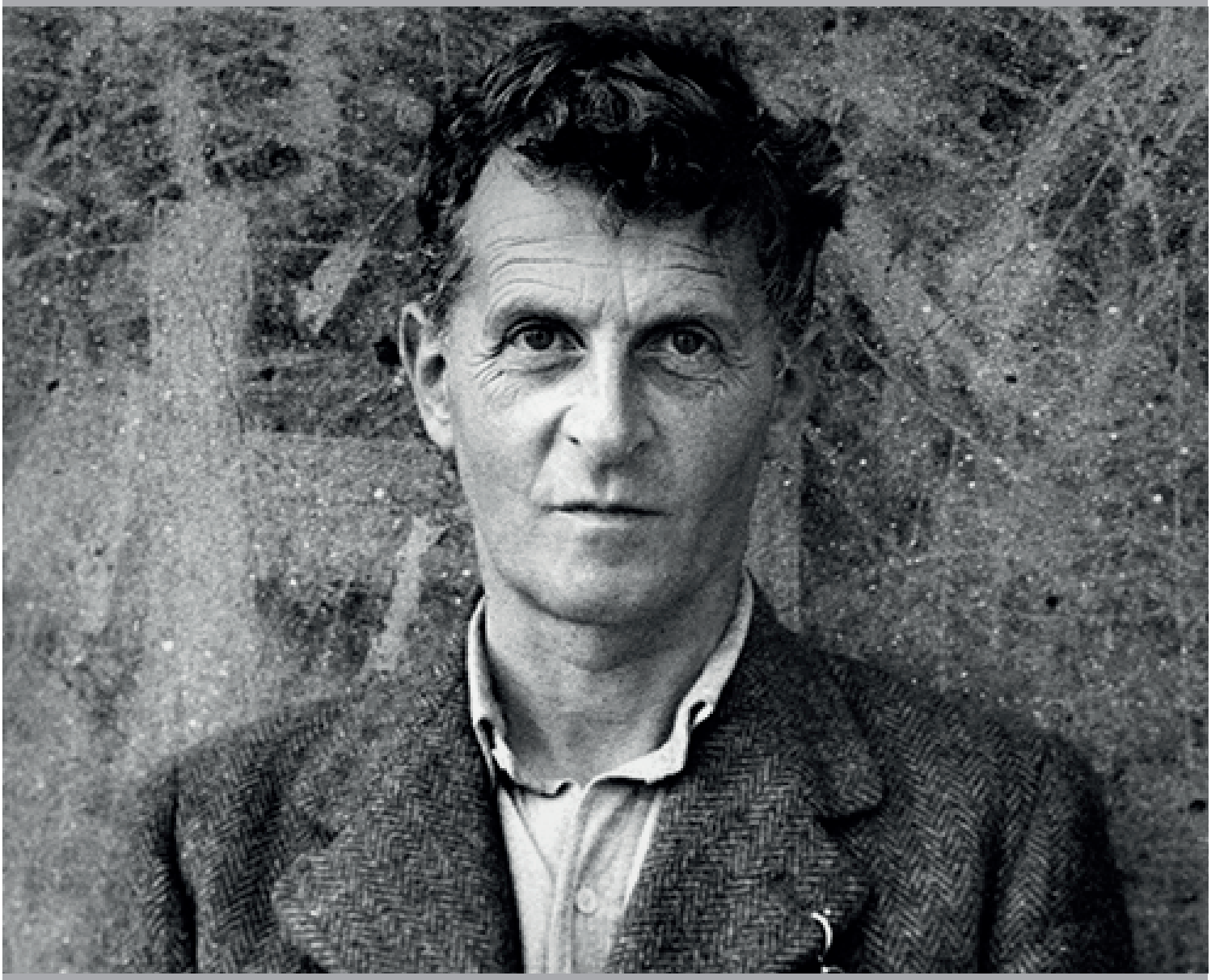

لودفيج فيتجنشتاين
ترجمة: علي رضا

مؤمنون بلا حدود
Mominoun Without Borders
للدراسات والأبحاث www.mominoun.com

جميع الحقوق محفوظة © 2017
All rights reserved © 2017

لودفيج فيتجنشتاين - محاضرة عن علم الأخلاق

لودفيج فيتجنشتاين

تعريب: **علي رضا**

ألقى فيتجنشتاين تلك المحاضرة في 17 نونبر 1929 على جمعية الهراطقة (Heretics Society) في جامعة كامبريدج. وهذه ترجمة لنصّها كما هو في المخطوطة المكتوبة بالآلة الكاتبة رقم (TS-207) في أرشيف أوراق فيتجنشتاين بجامعة بيرجن (The Wittgenstein Archives at the University of Bergen) المعروف باسم (Wittgenstein's Nachlass)[1]

السيّدات والسادة،

قبل أن أبدأ في الحديث عن موضوعي الأصلي، اسمحوا لي أن أبديَ بعض الملاحظات التمهيدية. أشعر أنّني سأواجه مصاعب جمة في توصيل أفكاري إليكم، وأعتقد أنّ بعضها قد يتضاءل بذكرها لكم مسبقًا. الصعوبة الأولى، والتي تقريبا لا تحتاج لأن أذكرها، هي أنّ اللغة الإنجليزية ليست لغتي الأم. ولهذا، فإنّ تعبيراتي غالبًا ما تفتقر إلى الدقة والكياسة المطلوبة عند التحدّث عن موضوع صعب. كلّ ما أستطيع القيام به هو أن أطلب منكم أن تجعلوا مهمّتي أيسر بأن تحاولوا أن تصلوا للمعاني التي أقصدها، رغم الأخطاء التي سأرتكبها مرارًا بحقّ قواعد اللغة الإنجليزية.

أمّا الصعوبة الثانية التي سأذكرها، فهي أنّه ربما أتى الكثير منكم لمحاضرتي مع بعض التوقّعات الخاطئة قليلًا. ولأصحّح لكم هذا الوضع، فسأقول بعض الكلمات عن سبب اختياري لهذا الموضوع: عندما شرّفني سكرتيركم السابق بطلبه أن ألقيَ عليكم محاضرة، كانت أولى أفكاري هي أنّي سأقوم بذلك بالتأكيد، أمّا ثاني أفكاري، فكانت إذا أتيحت لي فرصة التحدّث إليكم، فيجب أن أتحدث عن شيء أنا متحمّس لإيصاله إليكم وأنّي يجب ألاّ أسيء استخدام تلك الفرصة بإلقائي على مسامعكم محاضرة حول المنطق مثلا. وأنا أسمّي هذا سوء استخدام، لأني سأحتاج لعدّة محاضرات متصلة، حتى أشرح لكم موضوعًا علميًا وليس محاضرة لساعة واحدة فقط. البديل الآخر كان أن ألقي عليكم ما يسمّى بمحاضرة علم شعبوي، وهي محاضرة تهدف إلى جعلكم تعتقدون أنكم تفهمون شيئا، وأنتم فعليًا لا تفهمونه، وإلى إرضاء ما أعتقد أنه واحد من أدنى رغبات الإنسان المعاصر، وهو الفضول السطحي حول أحدث الاكتشافات العلمية. لقد رفضت هذه البدائل، وقرّرت أن أتحدّث إليكم عن موضوع يبدو لي أنه ذو أهمية عامة، على أمل أنّ حديثي قد يساعد في إيضاح أفكاركم حول هذا الموضوع (حتّى إذا وجب عليكم أن تعترضوا كلّيّة على ما سأقوله عنه).

الصعوبة الثالثة والأخيرة، والتي تظهر في معظم المحاضرات الفلسفية الطويلة، هي أنّ السامع غير قادر على رؤية كلّ من الطريق الذي يقاد فيه، والهدف الذي يؤدي هذا الطريق إليه. بعبارة أخرى: إنه إما

[1] Wittgenstein, Ludwig, James C. Klagge, and Alfred Nordmann. Philosophical Occasions, 1912-1951. Indianapolis, Hackett Pub. Co, 1993. 37-44.

أن يقول "أنا أفهم كل ما يقوله، ولكن ما الذي يريد أن يصل إليه بحقّ السماء" أو يقول "أنا أدرك ما الذي يريد أن يصل إليه، ولكن كيف بحق السماء سيصل إلى ذلك". وكل ما يمكنني القيام به هو أن أطلب منكم التحلّي بالصبر مجدّدًا، ونأمل أنه في نهاية المطاف قد ترون الطريق وإلى أين يؤدي.

الآن سأبدأ. موضوعي، كما تعلمون، هو علم الأخلاق وسوف أتبنى التفسير الذي أعطاه البروفيسور "مور (Moore)» في كتابه "المبادئ الأخلاقية (Principia Ethica)" لهذا المصطلح، وهو يقول: "علم الأخلاق هو التحقيق العامّ في ما هو خير" والآن سأستخدم مصطلح علم الأخلاق بمعنى أوسع قليلًا، في الواقع بمعنى يشمل ما أعتقد أنه الجزء الأكثر أهمية، مما يسمى عمومًا علم الجماليات.

ولأجعلكم ترون بأكبر قدر من الوضوح ما أراه موضوعًا لعلم الأخلاق، سوف أضع أمامكم بعض التعبيرات المترادفة، والتي يصلح كل واحد منها لأن يكون بديلًا للتعريف أعلاه، وبتعدادها فأنا أريد إنتاج نفس نوع التأثير الذي أنتجه "غالتون (Galton)" عندما قام بتصوير عدد من الوجوه المختلفة على نفس اللوحة الفوتوغرافية من أجل الحصول على صورة للسمات التقليدية المشتركة لديهم جميعًا. وبإظهار مثل هذه الصورة المجمّعة لكم، فسيمكنني أن أجعلكم ترون ما هو الوجه الأنموذجي الصيني مثلًا، فإذا نظرتم من خلال صفّ المترادفات التي سوف أضعها أمامكم، سوف تكونون، كما آمل، قادرين على رؤية السمات المميزة المشتركة لديهم جميعًا، وهذه هي السمات المميزة لعلم لأخلاق. الآن بدلًا من أن نقول: "علم الأخلاق هو التحقيق في ما هو خير"، كان يمكن أن نقول إنّ علم الأخلاق هو التحقيق في ما هو ذو قيمة، أو في ما هو مهمّ حقًا، أو كان يمكن أن أقول إنّ علم الأخلاق هو التحقيق في معنى الحياة، أو في ما يجعل الحياة تستحق العيش، أو في الطريقة الصحيحة للعيش. وأعتقد أنكم إذا نظرتم إلى كل هذه العبارات، سوف تحصلون على فكرة تقريبية لما يهتمّ به علم الأخلاق.

الآن أوّل ما يتبادر إلى ذهن الشخص أمام كل هذه التعبيرات هو أنّ كل واحد منها يستخدم فعليًا بمعنيين مختلفين جدًا. سأدعوهما المعنى التقليدي أو النسبيّ من ناحية والمعنى الأخلاقي أو المطلق من الناحية الأخرى. فعلى سبيل المثال، إذا قلت إنّ هذا كرسي جيّد؛ فهذا يعني أنّ الكرسي يخدم غرضًا معينًا محدّدًا سلفًا وكلمة جيّد هنا لها معنى فقط بقدر ما تمّ التأكيد على هذا الغرض سابقًا. في الواقع، فإنّ كلمة جيّد بالمعنى النسبيّ تعني ببساطة الوصول إلى مستوى معيّن محدّدٍ سلفًا. وهكذا، فعندما نقول إنّ هذا الرجل هو عازف بيانو جيّد، فإننا نعني أنه يمكنه أن يعزف مقطوعات على درجة معينة من الصعوبة بدرجة معيّنة من البراعة. وبالمثل إذا قلت إنّه من المهم بالنسبة إليّ ألاّ أصاب بنزلة برد، فإني أقصد أنّ إصابتي بنزلة برد تُنْتِجُ بعض الاضطرابات التي يمكن وصفها في حياتي، وإذا قلت إنّ هذا هو الطريق الصحيح، فإنّي أعني أنّه الطريق الصحيح نسبًة إلى هدفٍ معيّن.

باستخدام هذه التعبيرات بهذه الطريقة، فإنها لا تقدّم أيّة مشاكل صعبة أو عميقة. لكن هذه ليست هي الطريقة التي يستخدمها بها علم الأخلاق. لنفترض أنّني أستطيع لعب رياضة التنس، وأنّ أحدكم رآني ألعب وقال: "حسنًا، إنك تلعب بطريقة سيئةٍ جدًا"، ولنفترض أنّي أجبته قائلًا: "أعرف، أنا ألعب بشكل سيّء جدًا ولكني لا أريد اللعب بشكلٍ أفضل"، فيكون كلّ ما يستطيع الرجل قوله عندها هو: "حسنًا، إذًا كلّ شيء على ما يرام". لكن لنفترض أنّي أخبرت أحدكم بكذبة غير معقولة، وأنه جاء إلي وقال: "أنت تتصرّف بفظاظة"، فقلت له: "أعلم أنّي أتصرف بشكلٍ سيّء، ولكني لا أريد التصرّف بشكلٍ أفضل"، هل يمكنه عندها أن يقول: "حسنًا، إذًا كل شيء على ما يرام"؟ بالتأكيد لا، بل كان سيقول: "حسنًا، يجب عليك أن ترغب في التصرّف على نحوٍ أفضل." وهنا نجد لدينا حُكما مطلقا للقيمة، في حين أنّ المثال الأول كان حكمًا نسبيّا.

إنّ جوهر هذا الاختلاف يبدو واضحًا أنّه: كلّ حكم خاصّ بالقيمة النسبية هو مجرّد بيان لوقائع، وبالتالي يمكن وضعه في هذا الشكل، حيث يفقد كل مظاهر الحكم الخاص بالقيمة؛ فبدلًا من أن نقول: "هذا هو الطريق الصحيح لجرانشستر (Granchester)"، فإنّني بنفس الدرجة أستطيع أن أقول: "هذا هو الطريق الصحيح الذي يجب أن تسلكه إذا أردت الوصول لجرانشستر (Granchester) في أقصر وقت"، و"هذا الرجل عَدّاء جيّد" تعني ببساطة أنّه يجري عددًا معيّنًا من الأميال في عدد معيّن من الدقائق ... إلخ.

ما أودّ التأكيد عليه الآن، هو أنّه على الرغم من أنّ جميع الأحكام الخاصّة بالقيمة النسبية يمكن أن تظهر على أنها مجرّد بيان للوقائع، فإنّه لا يمكن لأيّ بيان لواقعة ما أن يكون، أو يستلزم، حكمًا خاصًا بالقيمة المطلقة. اسمحوا لي أن أشرح ذلك: لنفترض أنّ واحدًا منكم شخص كلّيّ العلم، وبالتالي فهو يعرف جميع تحرّكات جميع الأجسام في العالم سواء حيّة أو ميّتة، وأنّه أيضا يعرف جميع الحالات الذهنية لدى جميع البشر التي عاشت على الإطلاق، ولنفترض أنّ هذا الرجل كتب كلّ ما يعرفه في كتاب كبير، إذا فإنّ هذا الكتاب سيحتوي على الوصف الكامل للعالم؛ وما أريد قوله هو أنّ هذا الكتاب لا يحتوي على أيّ شيء يمكن تسميته حكمًا أخلاقيًا أو أي شيء من شأنه أن يستلزم، منطقيًا، مثل هذا الحكم. إنّه بالطبع، يحتوي على جميع الأحكام النسبية للقيمة وكل القضايا العلمية الصحيحة، بل في واقع الأمر سيحتوي على كل القضايا الصادقة التي يمكن تقديمها. ولكن كلّ تلك الوقائع التي تمّ وصفها، إذا جاز التعبير، تقف على نفس المستوى وبنفس طريقة وقوف كل القضايا على نفس المستوى. فلا توجد، بأيّ معنى مطلق، قضايا سامية، أو مهمّة، أو عادية.

ربّما سيوافق البعض منكم على ذلك الآن، وسيتذكّرون كلام هاملت: "ليس هناك ما هو جيّد أو سيّء، ولكن التفكير هو ما يجعله هكذا"، ولكن هذا قد يؤدي مرّة أخرى إلى سوء الفهم. ما يقوله هاملت يبدو أنه يعني أنّ الخير والشر، رغم أنّهما ليسا صفاتٍ للعالم خارجنا، فَهُمَا يعبّران عن خصال لحالاتنا الذهنية. ولكن

ما أعنيه أنا هو أن الحالة الذهنية، بقدر ما نعني بذلك أنها واقعة يمكن وصفها، ليست جيّدة أو سيّئة بأيّ معنى أخلاقي. على سبيل المثال، إذا قرأنا في كتابنا الذي يصف العالم وصفًا لجريمة قتل بكل تفاصيلها المادية والنفسية، فإنّ مجرّد الوصف لهذه الوقائع لن يحتوى على أيّ شيء ممّا يمكن تسميته قضيّة أخلاقية. إنّ القتل سيكون بالضبط على نفس مستوى أيّ حدث آخر، كسقوط حجر مثلًا. بالتأكيد إنّ قراءة الوصف قد تسبّب لنا الألم أو الغضب أو أيّ شعور آخر، أو من المحتمل أن نقرأ عن الألم أو الغضب الذي تسبّبت به جريمة القتل في الآخرين عندما سمعوا بها، ولكن ستكون هناك ببساطة وقائع، ووقائع، ووقائع ولكن لا أخلاق.

يجب الآن أن أقول، إنه إذا كنت أفكّر في ماذا يجب أن يكون علم الأخلاق، لو كان هناك مثل هذا العلم، فالنتيجة تبدو لي واضحة تمامًا. فلا شيء يمكننا أن نفكّر فيه أو نتحدث عنه إطلاقًا قد يكون هو علم الأخلاق. فإنّنا لا نستطيع أن نكتب كتابًا علميًا، حيث يكون موضوعه متساميًا في جوهره وفوق كلّ الموضوعات الأخرى. أستطيع فقط، وصف شعوري بهذه الاستعارة، أنّه إذا كان يمكن لرجلٍ ما أن يكتب كتابًا عن الأخلاق، وكان، حقًا، كتابًا عن الأخلاق، فإنّ هذا الكتاب سيبيد كل الكتب الأخرى في العالم بفرقعة مدوّية. إنّ كلماتنا، كما نستخدمها في العلم، هي أوعية قادرة فقط على احتواء ونقل الدلالة والمعنى، الدلالة الطبيعية والمعنى.

أمّا الأخلاق، بأي حال من الأحوال، هي شيء خارق للطبيعة وكلماتنا تعبّر فقط عن الوقائع، مثل الفنجان الذي سوف يحمل مقدار فنجانٍ كاملٍ من الماء، حتّى إذا كان لي أن أسكب غالونًا من الماء عليه. لقد قلت إنّه بقدر ما تكون الوقائع والقضايا معيّنة، فإنه توجد فقط قيمةٌ نسبيةٌ، خيرٌ نسبيّ، وحقٌ نسبيّ، إلخ. واسمحوا لي، قبل أن أكمل، أن أوضح ذلك من خلال مثال جليّ إلى حدّ ما. الطريق الصحيح هو الطريقُ الذي يؤدي إلى نهاية محدّدة سلفًا بشكل محكم، وأنه من الواضح جدًا لنا جميعًا أنه لا يوجد أي معنى للحديث عن الطريق الصحيح بعيدًا عن هذا الهدف المحدّد سلفًا. الآن دعونا نرى ما يمكن أن نعني بالتعبير، "الطريق الصحيح مطلقًا." أعتقد أنه سيكون الطريق الذي عندما يراه أيّ شخص فإنّه، بضرورة منطقية، يجب أن يسلكه، أو أن يخجل لأنه لم يسلكه. وكذلك الخير المطلق، إذا كان وضعًا واقعيًا يمكن وصفه، فسيكون ذلك الذي يحقّقه أيّ شخص بصورةٍ ضرورية، بغضّ النظر عن ذوقه وميوله، أو يشعر بالذنب لعدم تحقيقه. أريد أن أقول إنّ مثل هذا الوضع الواقعي هو وهم. لا يوجد أيّ وضع واقعيّ يمتلك، في ذاته، ما أودّ أن أسميه القوة القسرية لحكم مطلق.

إذن، ماذا لدينا جميعًا نحن الذين، مثلي، لا نزال نميل إلى استخدام تعبيرات مثل "خير مطلق"، "القيمة المطلقة"، وما إلى ذلك، ما الذي نضعه في اعتبارنا، وما الذي نحاول التعبير عنه؟ كلّما حاولت أن أجعل هذا واضحًا بالنسبة إليّ، يكون من الطبيعي بالتأكيد أن أتذكّر الحالات التي سأستخدم فيها هذه التعبيرات،

وعندها فأنا في نفس الحالة التي ستكونون فيها، إذا كان لي أن أعطيكم محاضرة عن سيكولوجيا المتعة على سبيل المثال، فما ستفعلونه عندها هو محاولة تذكّر بعض المواقف الأنموذجية التي أشعرتكم دائمًا بالمتعة لأنه، وبأخذ هذه المواقف بعين الاعتبار، كلّ ما هو مفترض أني سأقوله لكم عندها سيصبح ملموسًا، ويمكن السيطرة عليه، إذا جاز التعبير. فشخص ما ربما يختار كمثال معتاد ذلك الإحساس عندما يتمشّى في يوم صيفٍ جميل. أنا الآن في هذا الموقف، إذا كنت أرغب في تثبيت ذهني على ما أعنيه بالقيمة المطلقة أو الأخلاقية.

وفي حالتي، يحدث دائمًا أنّ فكرة خاصّة بتجربة واحدة معيّنة تطرح نفسها أمامي ولذلك فهي، إلى حد ما، تجربتي بامتياز، وهذا هو السبب أنّي، في حديثي إليكم الآن، سأستخدم تلك التجربة كمثالي الأوّل والأهمّ. (وكما قلت من قبلُ، هذه مسألة شخصية تمامًا، وسوف يجد الآخرون أمثلة أخرى أكثر قوّة). سأصف تلك التجربة من أجل أن أجعلكم تتذكّرون نفس التجربة، إذا أمكن ذلك، أو تجارب مماثلة لها، حيث تكون لدينا أرضيّة مشتركة لبحثنا. أعتقد أنّ أفضل طريقة لوصف ذلك هو أن أقول إنّني عندما أمرّ بها، فإنني أتعجب من وجود العالم. وعندها، فإني أميل إلى استخدام عبارات مثل "من المدهش أن يوجد شيء على الإطلاق" أو "من المدهش أن يوجد العالم في الأساس.» وسأذكر على الفور تجربة أخرى أعرفها جيّدا، والتي قد تكون مألوفة للبعض منكم: هي ما يمكن تسميته، تجربة الشعور بالأمان المطلق. أعني بذلك الحالة الذهنية التي يميل الشخص فيها إلى أن يقول: "أنا آمن، لا شيء يمكن أن يؤذيني مهما حدث.»

الآن دعوني أنظر في هذه التجارب، لأنها، في اعتقادي، تظهر تلك السمات ذاتها التي نحاول أن نستوضحها. وهنا، فأوّل ما يجب أن أقوله هو أنّ التعبير اللفظي الذي نقدّمه لهذه التجارب هو محض هراء!

إذا قلت: "أنا أتعجب من وجود العالم"، فإنّي أسيء استعمال اللغة. دعوني أشرح ذلك: يوجد معنى جيّد وواضح تمامًا لقولي، إنّني أتعجّب من أن يكون شيء ما واقعا، نحن جميعا نفهم ما يعنيه أن أقول إنّني أتعجب من حجم الكلب الذي هو أكبر من أيّ كلب رأيته من قبلُ، أو ما يعنيه أن أقول إنّني أتعجب من أيّ شيء غير عاديّ، بالحس السليم للكلمة. في كل حالة مثل هذه، إنني أتعجب من أن يكون شيء ما واقع، ويمكنني تصوّر أنه ليس بواقع. فأنا أتعجب من حجم هذا الكلب، لأنه يمكنني تصوّر كلب آخر، من الحجم العادي تحديدًا، والذي لا ينبغي لي التعجّب منه. فمقولة "أنا أتعجب من أن يكون كذا وكذا ما هو واقع" ليس لها معنى إلا إذا كان من الممكن تصوّر أنها ليست ما هو واقع. وفق هذا المعنى، فإنّه يمكن للمرء التعجّب، على سبيل المثال، من وجود منزل عندما يراه، وهو لم يزره لفترة طويلة ويتصوّر أنه قد تمّ هدمه في تلك الأثناء. ولكنّه من الهراء أن أقول إنّني أتعجب من وجود العالم، لأنني لا أستطيع تصوّر أنه غير موجود.

وبالطبع يمكنني التعجّب من كون العالم حولي على هذا الحال. فعلى سبيل المثال، إذا كانت لديّ هذه التجربة أثناء نظري للسماء الزرقاء، فيمكنني أن أتعجب من أنّ السماء زرقاء بدلًا من أن تكون ملبّدة

بالغيوم. ولكن هذا ليس ما أعنيه. فأنا أتعجب من السماء أيًا كانت حالتها. قد يميل المرء لأن يقول إنّ ما أتعجب منه هو تحصيل حاصل منطقيًا، تحديدًا من أنّ السماء زرقاء أو غير زرقاء. ولكن إنّه لمن الهراء أن نقول إنّ شخصا ما يتعجّب من تحصيل حاصل.

الآن الأمر نفسه ينطبق على التجربة الأخرى التي ذكرتها، تجربة الأمان المطلق. نحن جميعًا نعرف ما يعنيه أن تكون آمنًا في الحياة العادية. فأنا آمن في غرفتي، عندما لا يمكن أن يتمّ دهسي من قبل حافلة عموميّة. أنا آمن إذا أصبت بالسعال الديكي، فبالتالي لا يمكن أن أصاب به مرة أخرى. أن تكون آمنًا يعني في الأساس أنه من المستحيل ماديًا أن تحدث بعض الأمور المعيّنة لي، ولهذا فإنه من الهراء أن أقول إنني آمن مهما حدث. مجددًا هذا سوء استخدام لكلمة "آمن" كما في المثال الآخر الذي كان سوء استخدام لكلمة "الوجود" أو "التعجّب".

ما أريد إقناعكم به هو أنّ سوء استخدام معيّن للغتنا ينتشر في كلّ التعبيرات الأخلاقية والدينية؛ ذلك أنّ جميع هذه التعبيرات تبدو، لأول وهلة، مجرّد تشبيهات. وهكذا يبدو أنّنا عندما نستخدم كلمة الصحيح بالمعنى الأخلاقي، على الرغم من أنّ ما نعنيه ليس الصحيح بمعناه العادي، إلا أنه شيء من هذا القبيل، وعندما نقول: "هذا شخص جيد"، على الرغم من أن كلمة "جيّد" هنا لا تعني ما تعنيه في الجملة "هذا لاعب كرة قدم جيّد" إلا أنه يبدو أنّ هناك بعض التشابه. وعندما نقول: "حياة هذا الرجل ثمينة"، فإننا لا نعنيها بنفس المعنى الذي نقصده، عندما نتحدّث عن بعض المجوهرات الثمينة، ولكن يبدو أنّ هناك نوعًا من التشابه.

وبالتالي يبدو أنّ كل المصطلحات الدينية بهذا المعنى يتم استخدامها كتشبيهات أو مجازيًا. لأننا عندما نتكلم عن الله وأنه يرى كلّ شيء، وعندما نركع ونصلّي له، فإنّ جميع كلماتنا وأفعالنا تبدو وكأنّها أجزاء من مجازٍ عظيم ومفصّل يمثل الله كإنسان لديه قوّة عظمى نحاول الفوز بإحسانه إلخ. ولكن هذا المجاز يصف أيضًا التجربة أو التجارب التي أشرت إليها للتوّ. فالأولى منهم، في اعتقادي، هي بالضبط ما كان الناس يشيرون إليه عندما يقولون بأن الله قد خلق العالم؛ أمّا تجربة الأمان المطلق فقد تمّ وصفها بقولنا، إنّنا نشعر بالأمان بين يدي الله. وتجربة ثالثة من نفس النوع هي الشعور بالذنب ومرّة أخرى فقد تمّ وصفها بعبارة أنّ الله لا يوافق على سلوكنا. وهكذا، ففي اللغة الأخلاقية والدينية يبدو أنّنا دائمًا ما نستخدم التشبيهات. ولكن التشبيه يجب أن يكون تشبيهًا لشيء. وإذا كان لي أن أصف واقعة عن طريق التشبيه، فيجب أن أكون أيضًا قادرًا على إسقاط هذا التشبيه، وأن أصف الوقائع بدونه. الآن في حالتنا عندما نحاول إسقاط التشبيه وأن نذكر الوقائع التي تقف وراءه، سنجد أنه لا توجد مثل هذه الوقائع. ولذلك، ما ظهر في البداية أنّه تشبيه، يبدو الآن مجرّد هراء.

تلك التجارب الثلاث التي ذكرتها لكم (وقد كان بإمكاني إضافة المزيد) تبدو لأولئك الذين شهدوها، على سبيل المثال بالنسبة إليّ، أنّ بها، بطريقةٍ ما، قيمة جوهرية، مطلقة. ولكن عندما أقول إنّها تجارب، فهي وقائع بالتأكيد: فهي قد حدثت في ذلك الزمان والمكان، واستمرّت لوقت محدّد، وبالتالي فهي قابلة للوصف. ونتيجة لما قلته قبل بضع دقائق فيجب أن أعترف أنّه من الهراء أن نقول إنّ لديهم قيمة مطلقة. وسأقدّم وجهة نظري بصورة أكثر حدّة بقولي: "إنّها لمفارقة أنّ تجربة ما، واقعة ما، ينبغي أن يكون لديها قيمة خارقة للطبيعة».

الآن هناك طريقة أميل لأن أدفع تلك المفارقة بها. اسمحوا لي أوّلًا أن أنظر، مرّة أخرى، في تجربتنا الأولى في التعجب من وجود العالم، واسمحوا لي أن أصفها بطريقة مختلفة قليلًا؛ نعلم جميعًا ما ندعوه بالمعجزة في حياتنا العادية. من الواضح أنّها حدث لم نر مثله من قبل. الآن لنفترض أنّ مثل هذا الحدث وقع. ولنأخذ حالة أنّ واحدًا منكم نمت به فجأة رأس أسد وبدأ يزأر. من المؤكد أن ذلك سيكون من أكثر الأشياء التي يمكن أن أتخيّلها خرقًا للعادة. وعندما نتعافى من دهشتنا، فما أودّ اقتراحه هو إحضار طبيب والتحقيق في تلك الحالة بشكل علميّ، ولولا أنه سيصاب بالأذى، لكنت أردت أن يتمّ تشريحه. ولكن ماذا سيكون حال المعجزة عندها؟

لأنه من الواضح، أنّنا عندما ننظر للأمر بهذه الطريقة، فإنّ كلّ ما هو معجز قد اختفى. ما لم يكن أنّ ما نعنيه بهذا المصطلح هو مجرّد أنّ واقعة ما لم يفسرها العلم بعدُ، وهو ما يعني مجدّدًا أننا فشلنا حتى الآن في جمع تلك الواقعة مع البقية في منظومة علمية. هذا يبين أنّه من السخف أن نقول: "العلم أثبت أنّه لا توجد معجزات.» والحقيقة أنّ الطريقة العلمية للنظر في واقعةٍ ما، ليست هي الطريقة للنظر إليها على أنها معجزة. لأنّ أيّة واقعة يمكن تخيّلها، ليست في حدّ ذاتها معجزة بالمعنى المطلق لهذا المصطلح. فإننا ندرك الآن أننا كنّا نستخدم كلمة "معجزة" بالمعنى النسبي والمعنى المطلق. سأصف الآن تجربة التعجب من وجود العالم بقولي: إنّها تجربة رؤية العالم على أنّه معجزة.

الآن أنا أميل إلى أن أقول بأنّ التعبير الصحيح في اللغة لمعجزة وجود العالم، على الرغم من أنه ليس قضيّة في اللغة إطلاقًا، هو وجود اللغة نفسها. ولكن ماذا يعني إذن، أن نكون مدركين لهذه المعجزة في بعض الأحيان وليس في بعضها الآخر؟ فكلّ ما قلته عن طريق تحويل التعبير عن الإعجاز من تعبير عن طريق اللغة إلى التعبير بوجود اللغة، كل ما قلته مجدّدًا هو أننا لا نستطيع التعبير عما نريد التعبير عنه وأنّ كل ما يمكننا قوله عن الإعجاز المطلق يبقى هراءً.

قد تبدو الإجابة عن كل هذا واضحة تمامًا الآن لكثيرٍ منكم. سوف تقولون: حسنًا، إذا كانت بعض التجارب تغرينا باستمرار إلى أن نسبغ عليها صفة ندعوها قيمة وأهمية مطلقة أو أخلاقية، فهذا ببساطة يدلّ على أنه بهذه الكلمات، نحن لا نقصد هراءً، ففي النهاية ما نعنيه عندما نقول إنّ تجربة ما لها قيمة مطلقة هو

أنها مجرّد واقعة مثل غيرها من الوقائع وأنّ كل ما في الأمر هو أننا لم ننجح بعد في العثور على التحليل المنطقي الصحيح لما نعنيه بتعبيراتنا الأخلاقية والدينية. الآن، حين تتمّ إثارة هذا ضدّي، فإنّي على الفور أرى بشكل واضح، وفي لمح البصر، أنه ليس فقط لا يوجد أيّ وصف يمكنني التفكير فيه يكفي ليصف ما أعنيه بالقيمة المطلقة، بل إنني أيضًا سأرفض كل وصف مهمّ ممكن أن يقترحه أيّ شخص، في الأساس، بناء على أهميته.

بعبارةٍ أخرى: أرى الآن أنّ هذه التعبيرات هي هراء ليس لأني لم أعثر بعدُ على التعبيرات الصحيحة، ولكن لأنّ كونها هراءً هو جوهرها ذاته. فكل ما أردت فعله باستعمالها هو أن أذهب إلى ما وراء العالم، وهذا كي أستطيع أن أقول ما هو بعد اللغة ذات المعنى. إنّ كل غايتي وأعتقد غاية جميع الرجال الذين حاولوا قط أن يكتبوا أو يتكلموا عن الأخلاق أو الدين، هي المواجهة التصادميّة مع حدود اللغة.

وهذه المواجهة التصادمية مع جدران قفصنا ميْؤوس منها تمامًا. فعلم الأخلاق بقدر ما ينبع من الرغبة في قول شيء عن المعنى المطلق للحياة، والخير المطلق، والقيمة المطلقة، فإنّه لا يمكن أن يكون علمًا. فما يقوله لا يضيف شيئا إلى معرفتنا بأيّ حالٍ من الأحوال. لكن هو توثيق لنزعة في العقل البشري، والتي شخصيّا لا أملك إلاّ احترامها بعمق وألاّ أسخر منها في حياتي قطّ.

MominounWithoutBorders

Mominoun

@ Mominoun_sm

مؤمنون بلا حدود
Mominoun Without Borders
للدراسات والأبحاث www.mominoun.com

الرباط – أكدال. المملكة المغربية

ص ب : 10569

الهاتف : 54 99 77 537 212+

الفاكس : 27 88 77 537 212+

info@mominoun.com

www.mominoun.com

جميع الحقوق محفوظة © 2017

All rights reserved © 2017